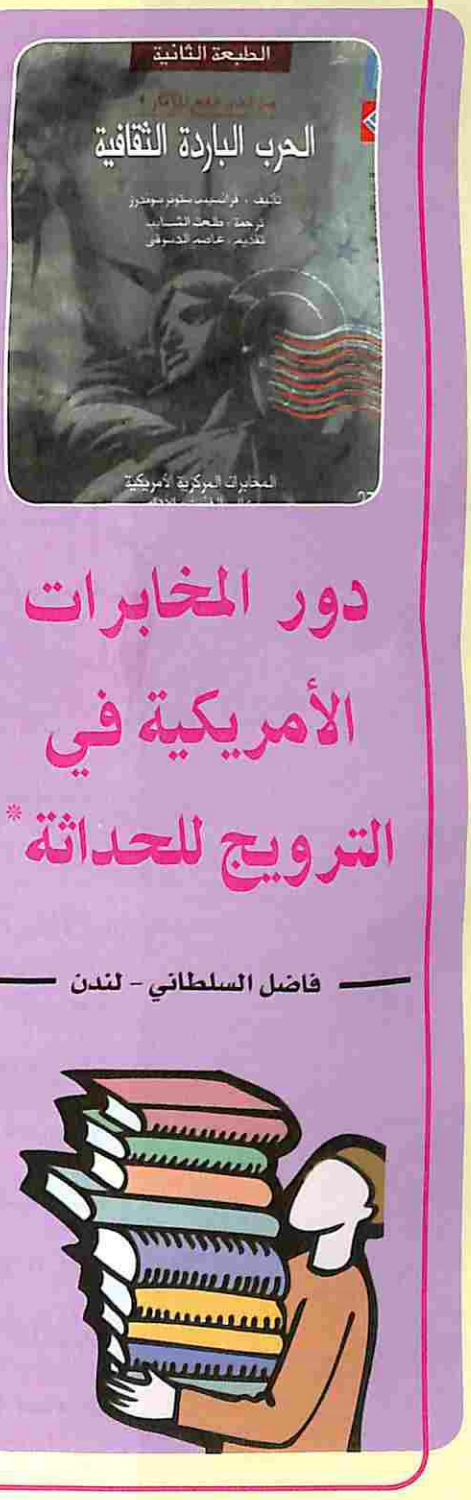

دور المخابرات الأمريكية في الترويج للحداثة*

فاضل السلطاني - لندن

بعض المعلومات الواردة في هذا الكتاب[1] ليست جديدة تماما، فقد أصبح معروفا منذ سنوات دور المخابرات المركزية الأمريكية، عبر المجلس الثقافي الحر، في تأسيس وتمويل عشرات المراكز الثقافية والمجلات الأدبية، ومنها مجلة «انكاونتر» البريطانية الشهيرة، وفي منطقتنا العربية مجلة (حوار) وغيرها.

لكن الجديد في هذا الكتاب هو توثيق هذه المعلومات للمرة الأولى، والكشف عن حقائق غير معروفة من قبل وخاصة وجود خطة عمل كاملة قامت بها الحكومة الأمريكية عبر وكالة المخابرات المركزية ليس للترويج لاتجاهات أدبية معينة وإنما لخلق مدارس وتيارات ثقافية كاملة ما تزال سائدة لحد الآن، ردا على شيوع مدرسة الواقعية الاشتراكية لفترة، ولتأسيس نظرية جمالية كاملة على المستوى العالمي تعبر عن الواقع الأمريكي الجديد، بعد أن تحولت الولايات المتحدة إلى دولة كبرى بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد بدأ هذا المسعى، في أوروبا الغربية في قمة الحرب الباردة. وتم ذلك عبر المجلس الثقافي الحر الذي رأسه مايكل جوسلين، الذي كان عميلا للمخابرات المركزية كما تقول الكاتبة، من ١٩٥٠إلى ١٩٦٧. وكانت هذه الفترة هي الفترة الذهبية في تاريخ هذا المجلس. فقد أنشأ مكاتب في خمسة وثلاثين بلدا، ووظف مئات الموظفين، ونشر عشرات المجلات الرصينة، وأقام مئات المعارض، ونظم المؤتمرات على المستوى العالمي وقدم عشرات الجوائز.

واستعانت وكالت المخابرات المركزية في تحقيق هذا الهدف بشبكة واسعة من المختصين، ثقافيا وسياسيا. والجمعية التي أنشأتها (سي. آي. إيه). تألفت مما دعاه هنري كيسنجر بـ(العقول الأرستقراطية المكرسة لخدمة مصلحة الأمة الأمريكية).

لكن (سي. آي. إيه) في الحقيقة اعتمدت بالدرجة الأولى على المثقفين اليساريين غير الشيوعيين السابقين الذين افترقوا عن أحزابهم بعد محاكمات موسكو الشهيرة، وكانوا علماء وشعراء، وفنانين، ومؤرخين، ونقاداً.

وتقول سوندرز: إن قليلين فقط لم تستخدمهم (سي. آي. إيه)، سواء عن وعي أو غير وعي، تحت شعار (حرية التعبير)، وتصوير الحرب الباردة على أنها (معركة من أجل العقل).

وبلغ الأمر بالفيلسوف الأمريكي الشهير آرثر شيلنجر، المعروف بلبراليته، على القول بأن تأثير (سي. آي. إيه) ليس دائما أو غالبا (تأثيرا رجعيا أو شريرا)، وأنه وجد من تجربته أن قيادتها (قيادة متنورة ومحنكة) ولعب ثلاثة من هؤلاء المثقفين دورا خطيرا في تجنيد أو تحييد العشرات من زملائهم، وهم: مايكل جوسلين، ونيكولاس نابوكوف، ابن عم الروائي الشهير فلاديمير نابوكوف، صاحب رواية (لوليتا)، وكلاهما هاجر من روسيا إلى الولايات المتحدة، وملفين لاسكي الذي أنشأ مجلة (مونات)، وهي التي استهلت الحرب الثقافية بين العملاقين آنذاك، أما الواجهات الثقافية للمخابرات المركزية الأمريكية التي تأسست عام ١٩٤٧، فهي (اليسار غير الشيوعي) و (الليبراليون الجدد) و(المهاجرون) الذين بدؤوا يشكلون قوة ثقافية واجتماعية كبيرة في الولايات المتحدة.

لقد بدأ المجلس الثقافي الحر، الممول كلية من المخابرات المركزية، بإرسال عشرات المثقفين إلى أوروبا وآسيا وإفريقيا لإقامة ندوات، أو المشاركة في مؤتمرات. وتم في الوقت نفسه إغراق أسواق البلدان الأخرى بملايين النسخ من الكتب الداعية إلى القيم الأمريكية الجديدة، والأدب الجديد، والسينما الجديدة، وأدب ما بعد الواقعية، وفن التعبيرية التجريدية التي كان جاكسون بولوك أبرز ممثليها، والمعروف بعدائه للمؤسسة الأمريكية.

لكن المشرفين على المجلس الثقافي الحر كان لهم رأي أخر، فكل شيء لا ينتمي إلى الأيديولوجيا الشيوعية، يصب في النهاية في خدمة القيم الأمريكية، (إن حرية التعبير، كما في التعبيرية التجريدية مثلا، هي جزء من المشروع الحر الذي ندافع عنه. إن كل أدب وفن حديثين سلاح لنا، لا يقل أهمية عن سلاح الجاسوسية).

وهنا تبدأ المفارقة الكبرى كما تقول مؤلفة هذا الكتاب الخطير سوندرز. فالمشرفون على (سي. آي. إيه)، وواجهاتها الثقافية يكادون لا يفقهون شيئا عن طبيعة الثقافة التي ضخوا الأموال الطائلة دفاعا عنها، فساهموا في الترويج لأعمال كتاب راديكاليين مثل جون إبدايك، نورمان ميللر، أرون كوبلاند، ريونارد برنشتاين، وعلى المستوى الفني، لاتجاه التعبيرية التجريدية بشكل خاص. وبذلك يمكن القول، كما تذهب المؤلفة: إن المخابرات المركزية هي التي ساعدت على نشوء أدب الحداثة، وما بعد الحداثة، وروجت لهما، وسوقتهما على المستوى العالمي.

وتذكر المؤلفة أسماء عشرات الشركات والمؤسسات المنتشرة في كل أنحاء العالم التي كانت تقوم بهذا الدور، وتنقل عن أحد عملاء المخابرات المركزية قوله:(نتصل بمؤسسات ومراكز معينة أمريكية في هذا البلد، أو ذاك، وحتى بأشخاص، ونطلب منهم، خدمة للبلد، أن يودعوا الأموال في حساباتهم، وبالتالي يتم توزيعها تحت مسميات مختلفة). وتسمى هذه المعاهد والمؤسسات والأشخاص بـ(القنوات الهادئة).

◁ مجلة إنكاونتر

تحت هذا العنوان تفرد الكاتبة فصلا كاملا للدور الخطير الذي قامت به مجلة (إنكاونتر) البريطانية الشهيرة التي كانت توزع في مختلف أنحاء العالم ومنها البلاد العربية، واعتبرت أفضل مجلة ثقافية منذ صدورها عام ١٩٥٣، وحتى توقفها عام ١٩٩٠.

ومن المعروف أن الشاعر اليساري سابقا ستيفن سبندر قد رأس تحريرها، وكان من كتابها البارزين: الفيلسوف أشعيا برلين، الذي نشر فيها مقاله الشهير (عقد مدهش)، ونانسي متفورد، وفلاديمير نابوكوف، ودبليو. إتش. أودن (الشيوعي سابقا)، وهربرت ريد، الناقد الفني الشهير، وباختصار كان يكتب فيها أفضل العقول في تلك الفترة، ومعظمهم شيوعيون أو يساريون سابقون.

لقد أصبحت هذه المجلة (رأس الحربة في التبشير بالقيم الأمريكية الجديدة، وأداة رئيسية في محاربة الأيديولوجية الشيوعية أثناء الحرب الباردة) كما تقول الكاتبة.

وقد ولدت بعد اجتماعات متواصلة بين ممثلين من المجلس الثقافي الحر، وجهاز المخابرات البريطانية، الفرع الخارجي (MI6) وكانت المخابرات المركزية الأمريكية قد تعهدت للجانب البريطاني بعدم ممارسة أي نشاط سري على المستوى الثقافي داخل بريطانية.

وقد تم اختيار ستيفن سبندر لمنصب رئيس التحرير من بين عشرات المرشحين، ويقول في مذكراته: إنه تم اختياره بعد مساهمته في كتاب (الإله الذي هوى) الذي صدر بعد محاكمات موسكو الشهيرة، وساهم فيه بشكل رئيسي آرثر كوستلر، الشيوعي السابق، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية بالعنوان نفسه.

لكن الكاتبة تقول: إن سبندر قد تم اختياره بعد أن كتب مقالا في مجلة أميركية بعنوان (كيف نستطيع أن نكسب المعركة من أجل عقل أوروبا؟).

وعلى أية حال، اتفق الجانبان الأمريكي والبريطاني على تمويل (إنكاونتر) الجانب الأمريكي من خلال غطاء ثقافي هو مؤسسة (فارفيلد) التابعة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، والجانب البريطاني من خلال وزارة الخزانة البريطانية التي تعهدت بدفع راتب سبندر بشكل سري. كما مثلت وزارة الخارجية البريطانية في المجلة من خلال مارجوت ولسلي التي توفيت عام ١٩٩٧م. وبلغت قيمة الشيك الأول الذي تسلمته المجلة ٢٥٠٠٠٠جنيه إسترليني، مع صدور عددها الأول عام ١٩٥٣م.

أما داخل الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، فقد مولت (سي. آي. إيه) المجلات الأدبية التالية: (بارتيسان ريفيو) التي كانت ترسل نسخا مجانية لآلاف المشتركين خارج الولايات المتحدة، و(كينيون ريفيو)، و(هودسون ريفيو)، (سيواني ريفيو)، ومجلة (شعر)، ومجلة (تاريخ الأفكار).

وبلغت تكاليف الصرف على هذه المجلات في الستينات ٦٠٠٠٠ دولار أمريكي.

وتنتقل الكاتبة في فصل آخر، إلى شرح عملية (اصطياد المثقفين) التي كانت تتم على أعلى مستوى. ففي عام ١٩٦٢م، دعا جون كنيدي إلى إقامة (علاقة بناءة) مع الكتاب والفنانين والمفكرين، ودعا إلى البيت الأبيض ١٥٦ شخصا من أبرز الوجوه الثقافية آنذاك ومنهم : (آرثر ميللر، وأرنست همنجواي، وأرشيبالد مكليش، صاحب (الشعر والتجربة) الذي ترجمته سلمى الخضراء الجيوسي إلى العربية،، والشاعر الشهير روبرت لوويل، لتبدأ بعدها مطاردة اثنين من المدعوين هما: لوويل وآرثر ميللر.

ويبدو أن المجلس الثقافي الحر وخلفه (سي. آي. إيه)، وجد ضالته في لوويل، ودعاه مرة أخرى لحضور حفلة عشاء على شرف الكاتب الفرنسي أندريه مالرو، الذي كان آنذاك وزيرا للثقافة. وتذكر الكاتبة أن كنيدي قال في ذلك اللقاء كلمته الشهيرة: (إن البيت الأبيض أصبح مقهى للمثقفين).

وبعد ذلك اللقاء وافق لوويل على القيام بزيارة إلى أمريكا الجنوبية على حساب المجلس الثقافي الحر. لكن لوويل في إحدى نوباته العصبية، فضح أهداف جولته، وألقى خطابا يمدح فيه هتلر!

وقد تم اختيار لوويل لأنه الشاعر الأمريكي الوحيد

القادر على مواجهة الشعراء الشيوعيين هناك.. مثل بابلو نيرودا.

وكانت الأخبار قد تسربت عن ترشيح نيرودا لجائزة نوبل للآداب لعام ١٩٦٤م، وهي من المرات النادرة في تاريخ جائزة نوبل، التي تتسرب فيها أسماء المرشحين. فشنت المخابرات المركزية هجوما مضادا لمنع (وقوع هذه الفضيحة) حسب تعبير جوليان جوركن الذي قاد الحملة، وكتب إلى صديق له مذكرا إياه بأن نيرودا (شيوعي) وسبق له أن نال جائزة ستالين عام ١٩٥٣. وتم الاستعانة في هذه الحملة بالفيلسوف سلفادور دي مادار ياجا، ونجحت الحملة فعلا في حجب نوبل عن نيرودا ذلك العام.

وبعد ذلك أسست المخابرات المركزية الأمريكية المؤسسات التالية كواجهة لهايجوتام)، و(أندرو هاملتون فند)، و(بوردن فند)، وبيكون فند)، و(كنتفيلد كنت).

وتتسلم هذه المؤسسات المسجلة باعتبارها مؤسسات غير ربحية أو بالتالي معفية من الضرائب، الأموال لتحولها فيما بعد إلى أي مكان في العالم تحت واجهة (مساعدات ثقافية).

◁ المجلس الثقافي الحر ومنظمة pen

وتفرد الكاتبة فصلا مطولا للحديث عن إنشاء منظمة Pen بعد أن شعرت منظمة المجلس الثقافي الحر، أو اللجنة الأمريكية للحرية الثقافية حسب التسمية الرسمية، بأنها لم تعد قادرة على السيطرة على الوضع الثقافي بعد ظهور حركة (بيت) – المهمشون/المسحوقون، وحركات اليسار الجديد، وصدور (نيويورك بوك ريفيوز) الرصينة والمحسوبة على اليسار. وبدأ المجلس معركة كبيرة للسيطرة على منظمة Pen العالمية التي أنشئت بمبادرة من الأمم المتحدة، وفتحت لها فروعا في خمسة وخمسين بلدا.

واستطاع جون هنت، رئيس المجلس، أن يقيم علاقة وثيقة مع رئيس Pen آنذاك ديفيد كارفر، الذي عمل لفترة كوكيل سري لمجلة (إنكاونتر) في الولايات المتحدة.

ومن خلال ذلك استطاع هنت أن يعين كيث بوتسفورد، عضو المجلس الثقافي الذي حاول شراء روبرت لوويل، نائبا للرئيس مما أثار ضجة كبيرة في فروع المنظمة، وخاصة في فرنسا.

وفيما بعد عرض كيث بوتسفورد، وديفيد كارفر على الكاتب المسرحي آرثر ميللر تسلم رئاسة Pen بعد أن ذهب الاثنان لمقابلته في باريس. وأثار هذا العرض شكوك ميللر الذي كتب يقول: (شككت بأنهما يريدان استخدامي. وتعجبت من اهتمام وزارة الخارجية، أو وكالة المخابرات المركزية، ونظيرتيهما في بريطانيا، بشخصي فجأة).

وتمت مفاتحة ميللر بذلك، بعد أن رفض الروائي الأمريكي جون شتاينبك قبول المنصب.

لكن ميللر عاد وقبل المنصب في مؤتمر نظمته Pen في يوغوسلافيا. وقد دفع تكاليف سفر وإقامة أعضاء المجلس الثقافي الحر، مؤسسة فارفيلد، الواجهة الثقافية للمخابرات المركزية، ومن هؤلاء الأعضاء وول سونيكا وكارلوس فوينتس. وقد تسلمت المنظمة آنذاك مبلغ ٧٥٠٠٠ دولار أمريكي من المنظمتين المذكورتين، و٢٥٠٠٠ دولا أمريكي من منظمة فورد(**) ■

---

* جريدة الشرق الأوسط، العدد ٧٥٣١، ١٤٢٠/٣/٢٨هـ/٧/١٢/ ١٩٩٩م.

(١) الكتاب: من يدفع التكاليف؟
المؤلفة : فرانسيس ستونور سوندرز
الناشر: جرانت، يوليو (تموز) ١٩٩٩م، عدد الصفحات : ٥٠٩ صفحة.